الباب الأول

في فضل العقل

قال أبو عبد الله الحارث بن أسد بن عبد الله المحاسبي البصري رحمة الله عليه : سألت عن العقل ما هو؟ وإني أرجع إليك في اللغة والمعقول من الكتاب والسنة ، **وتراجع العلماء فيما بينهم بالتسمية ثلاثة معاني :**

أحدها : هو معناه لا معنى له غيره في الحقيقة .

والآخران : اسمان جوزتهما العرب إذ كانا عنه فعلا لا يكونان إلا به ومنه ، وقد سماها الله تعالى في كتابه وسمتها العلماء عقلا ، فأما ما هو في المعنى في الحقيقة لا غيره فهو غريزة وضعها ، فهو غريزة لا يعرف إلا بفعاله في القلب والجوارح لا يقدر أحد أن يصفه في نفسه ولا في غيره بغير أفعاله ، لا يقدر أن يصفه بجسمية ولا بطول ولا بعرض ولا طعم ولا شم ولا مجسة ولا لون ولا يعرف إلا بأفعاله.

وقال قوم من المتكلمين : هو صفوة الروح أي خالص الروح ، واحتجوا باللغة ، **فقالوا** : لب كل شيء خالصه فمن أجل ذلك سمي العقل لبا ، وقال الله ﷻ: { إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ} [الزمر : ٩] ، **يعني** : أولي العقول ، ولا نقول ذلك إذا لم نجد فيه كتابا مسطورا ولا حديثا مأثورا.

وقال قوم : هو نور وضعه الله طبعا وغريزة يبصر به ويعبر به ، نور في القلب كالنور في العين وهو البصر ، فالعقل نور في القلب والبصر نور في العين فالعقل غريزة يولد العبد بها ثم يزيد فيه معنى بعد معنى بالمعرفة بالأسباب الدالة على المعقول .[1] وقد زعم قوم أن العقل معرفة نظمها الله ووضعها في عباده يزيد ويتسع بالعلم المكتسب

---

[1] راجع: " مائية العقل ومعناه واختلاف الناس فيه " للحارث بن أسد بن عبد الله المحاسبي أبو عبد الله ، الناشر : دار الكندي ، دار الفكر – بيروت . ط ٢ ، سنة ١٣٩٨م ، تحقيق : حسين القوتلي.

الدال على المنافع والمضار والذي هو عندنا أنه غريزة والمعرفة عنه تكون ، وكذلك الجنون والحمق لا يسمى نكرة ؛ لأنه لو كان المعرفة هو العقل سمي الجنون نكرة والحمق نكرة لأن النكرة ضد المعرفة والجهل ضد العلم.

وقد قسم الجرجاني العقل إلى :

أ) العقل الهيولاني: وهو الاستعداد المحض لإدراك المعقولات ، وهو قوة محضة خالية عن الفعل كما في الأطفال ، وإنما نسب إلى الهيولى ؛ لأن النفس في هذه المرتبة تشبه الهيولى الأولى الخالية في حد ذاتها عن الصور كلها. **ب) العقل بالملكة:** وهو العلم بالضروريات ، واستعداد النفس بذلك لاكتساب النظريات.

ت) العقل بالعقل: أن تصير النظريات مخزونة ضد القوة العاقلة بتكرار الاكتساب بحيث يحصل لها ملكة الاستحضار متى شاءت في غير تجشم كسب جديد.

ث) العقل المستفاد: أن يحضر عنده النظريات التي أدركها بحيث لا تغيب عنه.[1]

قال الإمام ابن القيم : قد اختلف الناس في ماهية العقل ومسكنه ، وأطالوا ، وقد رُويت في فضله أحاديث كثيرة ، وقد ذكرنا جملةً من ذلك في كتابنا المسمد بذم الهوى فلا نعيدها بل نذكر هاهنا جملة ، **فنقول :** إنما يعرف فضل الشئ بثمرته ، ومن ثمرات العقل معرفة الخالق سبحانه ، فإنه استدل عليه حتى عرفه ، وعلى صدق الأنبياء حتى علمه .

وحث على طاعة الله ، وطاعة رسله ، ودبر في نيل كل صعب حتى ذلل البهائم.

---

[1] **راجع:** " التوقيف على مهمات التعاريف " ، للعلامة محمد عبد الرءوف المناوي ، الناشر : دار الفكر المعاصر ، دار الفكر – بيروت ، دمشق ، ط١ ، ١٤١٠ هـ ، تحقيق : د. محمد رضوان الداية.

وعلمه صناعة السفن التي بها يتوصل إلى ما حال بيننا وبينه البحر، واحتال على طير الماء حتى صِيدت.

وعينه أبداً تراقب العواقب وتعمل بمقتضى السلامة فيها والعوز ، ويترك العاجل للآجل.

وبه فضل الآدمي على جميع الحيوان الذي فقده ، وبه تأهل الآدمي لخطاب الله سبحانه وتكليفه . وبه يبلغ الإنسان غاية ما في جوهر مثله أن يبلغه من خير الدنيا والآخرة من العلم والعمل . وكفى بهذه الأشياء فضيلة لا ببغضها . فليكتف بهذه الجملة عن الإطالة.

قال الحكيم الترمذي : أعوان العقل خمسون : وللعقل خمسون عوناً ، وللهوى خمسون عوناً : قال أبو عبد الله رحمه الله، أما العقل أوله ، ثم الفهم ، ثم البصر ، ثم المعرفة ثم اليقين ، ثم الفقه ، ثم الوقف ، ثم الحلم ، ثم الإلهام ، ثم الإخلاص ، ثم التواضع ، ثم السخاوة ، ثم الصواب ، ثم

النصيحة ، ثم الحسبة ، ثم النية ، ثم الشفقة ، ثم المداراة ، ثم الورع ، ثم الشكر ، ثم الرضا ، ثم الصبر ، ثم الخوف ، ثم التقوى ، ثم الجهد ، ثم الاستقامة ، ثم الزهد ، ثم الفراسة ، ثم الألفة ، ثم الإنابة ، ثم الشوق ، ثم التضرع ، ثم الحب ، ثم الحفظ ، ثم الصدق ، ثم الهدى ، ثم الذهن ، ثم الفراغة ، ثم الأمن ، ثم التوكل ، ثم الثقة ، ثم القناعة ، ثم التفويض ، ثم العافية ، ثم الراحة ، ثم الخشوع ، ثم التفكر ، ثم العبرة ، ثم الاستخارة ، ثم السلامة ، ثم المنزلة ، ثم العزلة ، ثم التهيؤ.[1]

تفسير العقل : والعقل ما أكرم الله به العباد وضده الهوى ، وشكل العقل اليقين ، والعقل من العاقل ، وهو عقد المؤمن بين إيمانه وبين أن يكفر ، والهوى ، هو عقد للكافر بين كفره

---

[1] **راجع** : " العقل والهوى "، للعلامة الحكيم الترمذي.

وبين أن يؤمن، لقول الله تعالى: { يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ } [الأنفال: ٢٤] ، يقول : يحول بين المؤمن وبين أن يكفر ، وبين الكافر وبين أن يؤمن ؛ لأن الله تعالى خلقك ، وهداك ، وعرفك بوحدانيته ، حتى عرفت أنه واحد لا شريك له.

ولا يقدر الشيطان أن يشك بالله ، لأجل تعريفه إياك فالمنَّة لله على ذلك . والعقل أيضا عقد بين الطاعة والمعصية ، فيعقد ويفتح : فحيث يكون العقد في والخوف والتفكر والحفظ والعاقبة عن هذا ؛ فأول ما يشككه الشيطان بالمعصية . فحيث يغفر العبد عن هذا فيشككه الشيطان حتى يقع في الذنوب ، ولم يذهب ذلك العقل الأول لأنه لا يرضى بقلبه بالمعصية لله ، وإنما يرضى بقلبه لأجل نهمة النفس ، حتى غفل عن عاقبة الذل والهوان. ويكون أيضاً عقداً بين بدعة المبتدع وبين سنة السني ، فيعقد ويفتح فحيث يكون العقد في

الخوف والحفظ والتفكر لعاقبته ؛ فأول ما يشككه الشيطان حتى يوقعه في البدعة ، فإذا أوقعه في البدعة ؛ فلم يذهب ذلك العقل الأول عنه.

ويكون ذلك أيضا عقداً بين زهد الزاهد وبين رغبة الراغب ، فيعقد ويفتح ، فحيث يكون العبد في الخوف والحفظ والتفكر لعاقبة الحساب الشديد ، والحبس عن الجنة ، والتقصير في الدرجة ، وسؤال الله إياه من أين اكتَسَبْت ، وفي ماذا أنفقت ، وماذا أردت به ؛ فأول ما يشككه الشيطان حتى يوقعه في الرغبة في الدنيا ، فإذا أوقعه فلم يذهب عنه ذلك العقل الأول فهذا تفسير العقل.[1]

***

[1] أنظر : المصدر السابق.

الباب الثاني

في ذم الهوى

قال ابن القيم : الهوى ميل الطبع إلى ما يلائمه ، فلا يذم هذا المقدار إذا كان المطلوب مباحاً ، وإنما يذم الإفراط فيه . فمن أطلق ذم الهوى فلأن الغالب فيه ما لا يحل أو يتأمل المباح بإفراطه ، واعلم أن النفس منها جزء عقلي فضيلته الحكمة ورذيلته الجهل ، وجزء غضبي فضيلته الحدة ورذيلته الجبن.

وجزء شهواني فضيلته العفة ، ورذيلته إطلاق الهوى ، فالصبر عن الرذائل فضيلة للنفس ؛ بها يحتمل الإنسان الخير. فمن قل صبره فحكّم هواه على عقله فقد صير المتبوع تابعاً والمأموم إماماً ، فلا جرم أن جميع ما يرومه ينعكس عليه ، فإنه يتأذى من حيث قدر النفع ويحزن من حيث أراد الفرح . وإنما فضل الآدمي على الحيوان البهيمي بالعقل الذي

أمر بكف الهوى ، فإذا لم يقبل قوله وحكم الهوى كان الحيوان البهيمي أعذر من الآدمي .

ويدل على فضل خلاف الهوى تقديم كلب الصيد وإكرامه على أبناء جنسه ، وذلك لمكان مخالفته للهوى من حبس ما صاده على صاحبه دون أكله خوفاً من عقوبته أو شكراً لنعمته.[1] **قال الشاطبي** : سمى الهوى هوى، لأنه يهوي بصاحبه إلى النار.[2] وقال ابن عباس : ما ذكر الله عز وجل الهوى في كتابه إلا ذمه!!.[3] **وأصل الضلال** : إتباع الظن والهوى ، **كما قال تعالى فيمن ذمهم** : { إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى إن يتبعون }[النجم :٢٣].

---

[1] **راجع** : " الطب الروحاني "، للإمام ابن القيم.

[2] **راجع** : " الموافقات " للشاطبي ، ج ٤.

[3] **أنظر** : " الموافقات " ج٤ ، ص ١١٥ .

وهذا وصف للكفار فكل من له نصيب من هذا الوصف فله نصيب من متابعة الكفار بقدر ذلك النصيب، وقال تعالى في حق نبيه ﷺ : { وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (٢) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى } [النجم :١-٦].

فنزهه عن الضلال والغواية ، **الذين هما** : الجهل والظلم، فالضال هو الذي لا يعمل الحق، والغاوي الذي يتبع هواه.

وأخبر أنه لا ينطق عن هوى النفس ، بل هو وحى أوحاه الله إليه. فوصفه بالعلم ونزهه عن الهوي.[1]ومتبع الهوى لا بد أن يضل ، سواء عن علم أو عن جهل ، فإنه كثيراً ما يترك العلم اتباعاً لهواه ، ولا بد أن يظلم إما بالقول أو بالفعل ؛ لأن هواه قد أعماه.

---

[1] **أنظر:** " فتاوى ابن تيمية " ج ٣ ، ص ٣٨٤ .

ولهذا حذر السلف عن مجالسة من هذه صفته، **كما قال أبو قلابة** : لا تجالسوا أهل الأهواء، ولا تجادلوهم، فإني لا آمن أن يغمسوكم في ضلالتهم أو يلبسوا عليكم ما تعرفون.[1]

وقال أيضا: لا تجالسوا أهل الأهواء فإنكم إن لم تدخلوا فيما دخلوا فيه لبسوا عليكم ما تعرفون[2]. **يعني** : أن مجلس صاحب الهوى لا يسلم من الشر. فإما أن يتابع صاحب الهوى على هواه وباطله ، أو يدخل عليه شبهة في دينه الذي يعرف أنه حق.

وقال ابن عباس : لا تجالس أهل الأهواء فإن مجالستهم ممرضة للقلوب.[3]

---

[1] رواه ابن بطة في الإبانة رقم (٣٦٣) ، واللالكائى رقم (٢٤٤) ، والدارمى ج ١ ، ص١٠٨.

[2] رواه ابن بطة في الإبانة رقم (٣٦٧).

[3] رواه ابن بطة في الإبانة رقم (٣٧١).

وقال إبراهيم النخعي : لا تجالسوا أهل الأهواء فإن مجالستهم تذهب بنور الإيمان من القلوب ، وتسلب محاسن الوجوه ، وتورث البغضة في قلوب المؤمنين ".[1]

وقال مجاهد : لا تجالسوا أهل الأهواء فإن لهم عرة كعرة الجرب.[2] **يعني** : أنهم يعدون من قرب منهم ، كما أن من قارب الأجرب جرب.

وقال محمد بن علي : لا تجالسوا أصحاب الخصومات فإنهم الذين يخوضون في آيات الله ".[3]

يقصد قوله تعالى : { وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى

---

[1] رواه ابن بطة رقم (٣٧٥).

[2] رواه ابن بطة رقم (٣٨٢) .

[3] رواه ابن بطة رقم (٣٨٣) ، والدارمى في السنن ج ١ ، ص ١١٠ ، واللالكائى رقم (٢٣٣).

يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً } [النساء : ١٤٠].

وقال مصعب بن سعد : لا تجالس مفتونا فإنه لن يخطئك منه إحدى اثنتين إما أن يفتنك فتتابعه ! وإما أن يؤذيك قبل أن تفارقه" !!.[١]

وقال يونس بن عبيد : أوصيكم بثلاث : لا تمكنن سمعك من صاحب هوى ، ولا تخل بامرأة ليست لك بمحرم ، ولو أن تقرأ عليها القرآن ، ولا تدخلن على أمير ولو أن تعظه.[٢]

وقال أبو قلابة يوصي أيوب السختياني : يا أيوب احفظ عني أربعاً : لا تقل في القرآن برأيك، وإياك والقدر، وإذا ذكر أصحاب محمد ﷺ فأمسك، ولا تمكن أصحاب الأهواء من

---

[١] رواه ابن بطة رقم (٣٨٥).

[٢] رواه ابن بطة رقم (٣٨٧).

سمعك فينبذوا فيه ما شاءوا.[1] **وقال أبو الجوزاء** : لئن تجاورني القردة والخنازير في دار أحب إلي من أن يجاورني رجل من أهل الأهواء.

وقد دخلوا في هذه الآية : { هَا أَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ }[آل عمران :١١٩].[2]

قال ابن بطة : قال رسول الله ﷺ: ((من سمع منكم بخروج الدجال فلينأ عنه ما استطاع ، فإن الرجل يأتيه وهو يحسب أنه مؤمن فما يزال به حتى يتبعه لما يرى من الشبهات)).[3]

---

[1] رواه ابن بطة رقم (٣٩٧) واللالكائى رقم (٢٤٦).

[2] رواه ابن بطة رقم (٤٦٦) واللالكائى (٢٣١).

[3] **حديث عمران بن حصين** : أخرجه ابن أبي شيبه (١٩ / ١٢٥ ، رقم ٣٨٦١٤).

قال : هذا قول الرسول ﷺ ، وهو الصادق المصدوق، فلا يحملن أحداً منكم حسن ظنه بنفسه وما عهده من معرفته بصحة مذهبه على المخاطرة بدينة في مجالسة بعض أهل هذه الأهواء ، **فيقول** : أداخله لأناظره أو لأستخرج منه مذهبه فإنهم أشد فتنة من الدجال ، وكلامهم ألصق من الجرب ، وأحرق للقلوب من اللهب ، ولقد رأيت جماعة من الناس كانوا يلعنونهم ويسبونهم فجالسوهم على سبيل الإنكار والرد عليهم فما زالت بهم المباسطة وخفي المكر ودقيق الكفر حتى صبوا عليهم.

وذكر أن محمد بن السائب كان من أهل السنة ، فقال : نذهب نسمع من هؤلاء فما رجع حتى أخذ بها وعلقت في قلبه.

قال : هذا قول الرسول ﷺ ، وهو الصادق المصدوق، فلا يحملن أحداً منكم حسن ظنه بنفسه وما عهده من معرفته

بصحة مذهبه على المخاطرة بدينة في مجالسة بعض أهل هذه الأهواء فيقول : أداخله لأناظره أو لأستخرج منه مذهبه فإنهم أشد فتنة من الدجال ، وكلامهم ألصق من الجرب ، وأحرق للقلوب من اللهب ، ولقد رأيت جماعة من الناس كانوا يلعنونهم ويسبونهم فجالسوهم على سبيل الإنكار والرد عليهم فما زالت بهم المباسطة وخفي المكر ودقيق الكفر حتى صبوا عليهم.[1]

وينبغي للعاقل أن يعلم أن مقاساة الشدة في خلاف الهوى أسهل مما يلقى في موافقته. وأقل ما يلقي موافقوا الهوى أنهم يصيرون إلى حالة لا يلتذون به فيها ثم لا يصبرون عنه ، لأنه يصير بالإدمان عادة. كمدمني الجماع وشراب الخمر ، والتفكر في هذه الأشياء تهون على الإنسان رفض الهوى.

---

[1] أنظر : " الهوى وأثره في الخلاف "، لفضيلة الشيخ عبد الله الغنيمان.

ومما يهون الهوى أن يتفكر الإنسان في نفسه فيعلم أنه لم يخلق لموافقة الهوى ، فإن الجمل يأكل أكثر منه. والعصفور يسافر أكثر والبهائم مطلقة في محبوباتها من غير حصر ولا يشوبهم.

غم فلما نقص حظ الآدمي من الشهوات ، ثم شيبت بالنقص علم أنه لم يخلق لذلك. وقد بينت لك أن المذموم من الهوى ما أفرط.

وهو الذي يحكم عليه العقل بالخطأ ، فأما ما تهواه مما تضطر إلى تناوله ويعينها على إصلاح حالها فممدوح لا مذموم.

***

الباب الثالث

في الفرق بين ما يرى العقل وما يرى الهوى

قال ابن القيم : اعلم أن الهوى يدعو إلى اللذة من غير فكر في عاقبته ، وقد يعلم أن تلك اللذة تجلب ألماً يربو عليها وتمنع صاحبها نيل أمثالها ، والهوى معرض عن النظر في ذلك ، وتلك حالة البهائم ؛ إلا أن البهائم أعذر ؛ لأنها لا ترى العاقبة .((١))

قال ابن الجوزي : واعلم أن الهوى يسري بصاحبه في فنون ويخرجه من دار العقل إلى دائرة الجنون ، وقد يكون الهوى في العلم فيخرج بصاحبه إلى ضد ما يأمر به العلم ، وقد يكون في الزهد فيخرج إلى الرياء .

وقد مدح الله عز وجل مخالفة الهوى فقال : { وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى } [النازعات :٤٠].

---

(١) راجع : " الطب الروحاني "، للعلامة ابن القيم.

قال المفسرون : هو نهي النفس عما حرم الله عليها.

قال مقاتل : هو الرجل يهم بالمعصية فيذكر مقامه للحساب فيتركها .

قال الشنقيطي : قرينة دالة على أنه خاف عاقبة الذنب حين يقوم بين يدي ربه، فنهي نفسه عن هواها.

والوجه الثاني : أن فاعل المصدر الميمي الذي هو المقام ، هو الله تعالى ، أي : خاف هذا العبد قيام العبد قيام الله عليه ومراقبته لأعماله وإحصائها عليه ، ويدل لهذا الوجه الآيات الدالة على قيام الله على جميع خلقه وإحصائه عليهم أعمالهم ، **كقوله تعالى:** { اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ }[البقرة:٢٥٥].

وقوله تعالى: { أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ } [الرعد:٣٣]، **وقوله تعالى:** { وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ } [يونس:٦١]، إلى غير ذلك

من الآيات.[1] وفي سورة الأحقاف في الكلام ، على قوله تعالى **في شأن الجن:** { يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ } [الأحقاف:٣١]، وقوله: { وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ }[الرحمن :٤٦ }، **وتصريحه بالامتنان بذلك على الإنس والجن في قوله** : { فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ [الرحمن :٤٧]، نص قرآني على أن المؤمنين الخائفين مقام ربهم من الجن يدخلون الجنة.[2]

وقال ﷻ: { بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ }[الروم :٢٩] ، **وقال تعالى** : { وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ} [القصص : ٥٠]. **وقال تعالى** : { وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ } [

---

[1] **راجع** : " تفسير القرطبي ".

[2] **راجع** : " أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ".

ص : ٢٦]. **وقال عبد الله بن عمرو بن العاص ، رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ :** ((لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به)).[١] وهذا الحديث ينبه كل مسلم بأنه يجب عليه أن يروض نفسه على أن تكون ميوله ورغباته واتجاهاته كلها تابعة لرسول الله ﷺ.[٢]

وهذا الحديث يشير إلى محاربة البدع ولزوم اتباع الكتاب والسنة ، وأن ميزان إيمان المؤمن هو في رضاه بقضاء رسول الله ﷺ، وكذلك نفي الإيمان عمن لم يرض بحكم رسول الله ﷺ وقضائه ، ومن لم يسلم له تسليماً. وفي الختام كأن النووي رحمه الله يختم هذه المجموعة بهذا الحديث ، ليعظم في نفس كل مسلم رجاء رحمة الله.

---

[١] **حديث عمرو** : ذكره الحكيم (١٦٤/٤) ، وأخرجه الخطيب (٣٦٨/٤) ، وابن أبي عاصم (١٢/١ ، رقم ١٥) .

[٢] **راجع** : شرح الأربعين "، للشيخ عطية بن محمد سالم .

وقال شداد بن أوس عن النبي ﷺ : ((الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت . والفاجر من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله)). [1]**قوله** : " دان نفسه " **أي** : استعبدها وأذلها ، **يقال** : دنت **القوم أدينهم** : إذا فعلت ذلك بهم ، **وقيل** : دان نفسه ، أي : حاسب نفسه في الدنيا قبل أن يحاسب في القيامة. **قال عمر بن الخطاب** : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا ، وتجهزوا للعرض الأكبر ، وإنما يخف الحساب يومئذ على من حاسب نفسه

---

[1] **حديث شداد بن أوس** : أخرجه ابن المبارك (٥٥/١ ، رقم ١٧١) ، والطيالسى (ص ١٥٣ ، رقم ١١٢٢) ، وأحمد (١٢٤/٤ ، رقم ١٧١٦٤) ، والترمذى (٦٣٨/٤ ، رقم ٢٤٥٩) **وقال** : حسن . وابن ماجه (١٤٢٣/٢ ، رقم ٤٢٦٠) ، وأبو نعيم في الحلية (٢٦٧/١) ، والبيهقى (٣٦٩/٣ ، رقم ٦٣٠٦) ، والطبرانى (٢٨١/٧ ، رقم ٧١٤١) ، والحاكم (١٢٥/١ ، رقم ١٩١) **وقال** : صحيح على شرط البخارى.
ومن غريب الحديث : "الكيس" : العاقل .

فـي الـدنيا.[1] **وقـال** : كفـى بـالمرء سـرفا أن يأكـل كـل مـا اشتهى.[2]

قـال أبـو حـازم : شيئان إذا عملت بهما أصبت بهما خير الدنيا والآخرة. **قيل** : ما هما ؟ **قال** : تحمل ما تكره إذا أحبه الله ، وتترك ما تحب إذا كره الله.[3]

وقال ابن مسعود : الحق ثقيل مري ، والباطل خفيف وبي ، ورب شـهوة سـاعة أورثـت حزنـا طـويلا ، ويـروى مثلـه عـن حذيفة بن اليمان. [4]

قال أبو الدرداء : لولا ثلاث ، لصلح الناس : شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه. [1]

---

[1] **أنظر** : " شرح السنة " للإمام البغوي (١٤ / ٣٠٩) .

[2] **أنظر** : المصدر السابق .

[3] **أنظر** : المصدر السابق.

[4] **أنظر** : المصدر السابق.

قال ابن عباس : ليأتين على الناس زمان يكون همة أحدهم فيه بطنه ينه هواه.[٢]

وقد جاءت نصوص كثيرة في مدح الخشية من الله ﷻ والخوف منه ، وجاء عن أكابر الصحابة وخيار التابعين آثار كثيرة في شدة خوفهم ، فمنهم من تمنى إن أمه لم تلده وإن كان شجرة تعضد.

والقاعدة في هذا إن المحمود أن يكون العبد بين الخوف والرجاء ولا يبلغ به الخوف أن ييأس من رحمة الله عز وجل ولا يبلغ به الرجاء أن يأمن من مكره.

وعلامة ذلك أن يكون دائباً في عمل الخير واجتناب الشر فإن من أيس من رحمة الله فلا يبعد أن يدع ذلك قائلا أنا معذب في الآخرة لا محالة لكثرة ذنوبي فلماذا امنع نفسي

---

[١] **أنظر** : المصدر السابق.

[٢] **أنظر** : المصدر السابق.

هواها فأعذبها في الدنيا بترك شهواتها ؟ ومن أمن مكر الله تعالى قال إنه ناج لا محالة فلا يضره أن يتبع نفسه هواها **ولم يخلق الله شيئاً إلا للبشر ويقرأ** : { قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } [الأعراف: ٣٢] ، وينسى إن قليلة يدعوا إلى كثيرة والاسترسال إلى الحلال الكثير يعسر عليه الاجتناب من الحرام فيغلب فيجترئ على ما لم يكن له أن يجترئ عليه ، **ويقول** : إنا مؤمن وكل مؤمن حبيب الله ، ومن شأن المحبوب أن لا يمنع محبة ما تهواه نفسه ولا يكلفه ما يشق عليه وأشباه ذلك.

وقد أجيب بأن الحديث خاص بحال لاحتضار فالمؤمن المحسن يبدو له من مبشرات تضطره إلى ظن الخير ، وإن كان قبل ذلك من أشد الخائفين وغيره يبدو له من المنذرات

ما يضطره إلى ظن سوء مصيره ، وإن كان قبل ذلك آمناً من مكر الله وهذا كما حمل حديث إذا أحب عبدي لقائي أحببت لقاءه ، وفيه إن لفظ الحديث عام فالتخصيص بلا دليل لا يجوز.

وقد يقال أن المراد بالعبد المؤمن الصالح كما تشعر الإضافة في قوله عبدي فهو الذي يكون الله عز وجل عند ظنه به إذ لا يظن به إلا الخير والحق ، وهو أهل أن لا يخيب رجاءه، **كقوله تعالى:** { إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى } [طه: ٤٦] ، وهي معية خصوصية ، أي : معه بالرحمة والتوفيق والهداية والرعاية والإعانة.

فهي أخص من المعية التي في قوله تعالى: { وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ } [الحديد: ٤] ، **وقوله :** { مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ } [المجادلة: ٧] ، فإن معناها المعية بالعلم والإحاطة.

وقال ﷺ : ((إذا رأيت شحا مطاعا ، وهوى متبعا ، ودنيا مؤثرة ، وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك ، ودع عنك أمر العامة)) .[1]

وأوردها أبو داود رحمه الله في هذا الحديث ، وهو حديث أبي ثعلبة الخشني جرثوم بن ناشر رضي الله تعالى عنه، أن رجلاً سأله عن قول الله ﷻ : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ }[المائدة:١٠٥].

فالمقصود بالسؤال : أنه قد يفهم منها أن الإنسان إذا اهتدى لا يضره ضلال غيره إذا ضل ، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس بالواجب ، ولكن سبق أن مر حديث أبي بكر ﷺ ، **حيث قال** : إنكم تقرءون هذه الآية وتضعونها في غير موضعها، ثم بين أن المقصود من ذلك بعد أن يأمر الإنسان وينهى ، وليس معنى ذلك أنه يترك الأمر والنهي ،

---

[1] **حديث أبي ثعلبة** : أخرجه الترمذي (٥ / ٢٥٧ ، رقم ٣٠٥٨).

ولكنه إذا أدى ما عليه فعند ذلك لا يضره ضلال من ضل إذا اهتدى. أما أن يترك الأمر والنهي ويكفيه أن يكون قد اهتدى، فهذا ليس بصحيح.

ولهذا استنتج من قوله : ((إِذَا اهْتَدَيْتُمْ))، أن الاهتداء يقتضي أن يهدي غيره، وأن يرشد غيره، وأن يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر. فلما سأل هذا الرجل أبا ثعلبة الخشني ، **قال** : لقد سألت خبيراً ، **يعني** : عندي علم في هذه الآية . فيريد أن يؤكد له أن الجواب عنده ، وأنه سأل من عنده علم ، ثم أخبر أنه سأل النبي ﷺعن ذلك.[1]

قوله: ((بل ائتمروا بالمعروف)) ، **يعني** : ليأمر بعضكم بعضاً بالمعروف، ولينه بعضكم بعضاً عن المنكر ، ولا يمسك الإنسان عن الأمر والنهي ، ويتعلل بأنه قد اهتدى ، وأنه لا يضره من ضل إذا اهتدى ، بل عليه أن يأمر وينهى

---

[1] **راجع** : " شرح سنن أبي داود "، للشيخ عبد المحسن .

، وبعد ذلك يكون قد أدى الذي عليه ، ويكون مأجوراً على أمره ونهيه ، وإن حصل أن استجيب له فذلك هو المطلوب ، وذلك خير على خير ، وإن لم يحصل أن استجيب له فإنه مأجور على نصحه وأمره ونهيه ، وبذله الخير لغيره.

قوله : ((الشح المطاع)) ، **يعني**: أن الناس غلب عليهم الشح والحرص على المال ، والتنافس في تحصيله ، **والشح** : بمعنى البخل ، بل هو أشد البخل ؛ ولهذا يقول الله ﷻ : { وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[الحشر :٩]. والبخل عام وخاص ؛ لأنه يطلق على بعض أفراد البخل **ويقال له** : شح ، وليست كل أفراد البخل شحاً ، **وإنما يقال للجميع** : بخل ، ويقال لكل ما كان أشد من غيره شح.

وقوله : ((وهوىً متبعاً))، **يعني** : أن الناس اتبعوا أهواءهم ولم يتبعوا ما جاء عن الله وعن رسوله ﷺ، بل أعرضوا عن كتاب الله وعن سنة رسوله ﷺ ، وما كان عليه الصحابة

الكرام رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم. **وقوله** : ((ودنياً مؤثرة)) ، **يعني** : أن الناس يؤثرونها ويحرصون عليها، ويؤثرون العاجلة على الآجلة ، ويحبون العاجلة ولا يهتمون بالآجلة، بل ترى الإنسان يؤثر الدنيا على الآخرة، ويحرص عليها ويغفل عن الآخرة.

وقوله : ((وإعجاب كل ذي رأي برأيه)) ، **أي** : أن يعجب الإنسان برأيه ولا يعول على نصوص الكتاب والسنة ، وإنما يعول على رأيه ، والحق هو التعويل على ما جاء في الكتاب والسنة ، واطراح الآراء إذا كانت مخالفة لما جاء في الكتاب والسنة.

قوله : ((فعليك بنفسك ، ودع عنك أمر العوام)) ، أو : ((دع عنك أمرك)) ، **يعني** : عند ذلك عليك أن تجتهد في خلاصك ونجاتك ، وتدع عنك الناس ، وذلك لقلة الجدوى والفائدة ؛ لأنها حصلت هذه الأمور التي انشغلوا بها عن

الاستجابة والالتزام بما جاء عن الله تعالى وعن رسوله صلوات الله وسلامه وبركاته عليه. **قوله** : ((فإن من ورائكم أيام الصبر)) كما في رواية أبي داود[1] ، **يعني** : إن من

---

[1] **قال أبو داود** : حدثنا أبو الربيع سليمان بن داود العتكى ، حدثنا ابن المبارك ، عن عتبة بن أبى حكيم ، **قال** : حدثنى عمرو بن جارية اللخمى ، حدثنى أبو أمية الشعبانى ، **قال** : سألت أبا ثعلبة الخشنى ، **فقلت** : يا أبا ثعلبة كيف تقول فى هذه الآية : { عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ}، قال : أما والله لقد سألت عنها خبيرا ، سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، **فقال** : ((بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر ، حتى إذا رأيت شحا مطاعا ، وهوى متبعا ودنيا مؤثرة ، وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك – يعنى بنفسك – ودع عنك العوام ، فإن من ورائكم أيام الصبر ، الصبر فيه مثل قبض على الجمر للعامل فيهم مثل أجر خمسين رجلا يعملون مثل عمله)).

أخرجه أبود داود (٤ / ٢١٥ ، رقم ٤٣٤٣).

ورائكم أياماً الصبر فيها عظيم ، ومما يحصل من فتن في تلك الأيام فالقابض على دينه فيها كالقابض على الجمر ، يعني : من شدة الأهوال والفتن ، فالذي يكون على الجادة يكون غريباً بين الناس ، والقابض على دينه فيها كالقابض على الجمر.

قوله : ((فإن من ورائكم أيام الصبر ، الصبر فيه مثل قبضٍ على الجمر)). الذي يقبض على الجمر تجده يتململ ولا يستطيع أن يبقي الجمر في يده ، بل يريد أن يتخلص منه فالذي يصبر على دينه في ذلك الزمان كالقابض على الجمر **ومعناه** : أن فيه شدة، والجمر يحرقه ويؤلمه ، ولكنه مع ذلك متمسك بدينه كصبر القابض على الجمر.

قوله: ((للعامل فيهم مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله)). **قوله** : ((للعامل فيهم)) ، **يعني** : في ذلك الوقت ((مثل أجر خمسين يعملون مثل عمله)) ، وزاد أحد الرواة

في الرواية : ((قيل : منهم ؟ قال : بل منكم))، يخاطب النبي ﷺ بذلك أصحابه ﷺ.

ومعلوم أن الصحابة رضي الله عنهم أعمالهم أفضل من غيرهم ، وأن أي شخص من الصحابة هو أفضل من أي شخص يجيء بعدهم من التابعين وأتباع التابعين ومن بعدهم لأنهم شرفوا بصحبة النبي الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

وشرفهم الله بالنظر إلى طلعته ، وبسماع حديثه من فمه الشريف ، فسمعوا صوته ﷺ، ونقلوا السنة إلى من بعدهم ، فهم الحاملون لما جاء عن الله وعن رسوله من الكتاب والسنة والذين أدوها إلى من بعدهم، فهم الواسطة بين الناس وبين رسول الله ﷺ، ولهذا كل أحد من الرواة يحتاج إلى معرفة حاله ، **إلا الصحابة فإنه يكفي الواحد منهم شرفاً أن، يقال:** إنه صحاب ي، ولا يحتاج إلى أن يبحث عن حاله ، وهل هو

ثقة أو غير ثقة، هذا شيء لا يذكر عند الصحابة ، **ولهذا لا يوجد في كتب التراجم عند ذكر الصحابي أن يقال : ثقة أو** هو كذا.. أو هو كذا.. **وإنما يكفيه شرفاً أن يقال :** صحابي أو له صحبة ، أو صحب النبي ﷺ ، ولهذا فإن المجهول فيهم في حكم المعلوم ، ولهذا يكفي أن يقال : عن رجل صحب النبي ﷺ، **وأما لو جاء لفظ :** " رجل " في أثناء الإسناد فإن الحديث يكون بذلك ضعيفاً ، وأما الصحابة رضي الله عنهم فالجهالة فيهم لا تؤثر ، والمجهول فيهم في حكم المعلوم رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم.

إذاً : ففضلهم لا يدانيهم فيه أحد ، والأجر الذي يحصلونه لا يساويه أجر أحد يجيء بعدهم ، وذلك لأن العمل القليل منهم لا يعادله عمل الكثير من غيرهم ، وذلك لأن الذي حصل منهم إنما هو مع النبي ﷺ ، وفي الجهاد مع النبي عليه الصلاة والسلام ، والذب عن النبي ﷺ ، والدفاع عنه ﷺ ،

وكان الإسلام غريباً في أول الأمر ، وأهله فيهم قلة ، ومع ذلك كانوا يتنافسون في الذب عن رسول الله ﷺ ، ويتسابقون ويفدونه بأرواحهم وأجسادهم ﷺ ، ورضي الله تعالى عنهم وأرضاهم.

فالأجر الذي يحصله من جاء بعدهم لا يساوي ما حصلوه من الأجر والثواب ولاسيما فيما يتعلق بتبليغهم السنن ، فإنهم الذين بلغوا الكتاب والسنة.

ومعلوم أن كل من جاء بعدهم وبلغ سنة عن رسول الله ﷺ ، فإن ذلك الصحابي الذي بلغ هذه السنة وحفظها عن النبي ﷺ يكون له مثل أجور كل من عمل بهذه السنة من حين تبليغ الصحابي وإرشاده إلى نهاية الدنيا.

وقال ﷺ : ((ثلاث مهلكات ، وثلاث منجيات : فالمهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه . والمنجيات : خشية الله في السر والعلانية ، والقصد في الغنى والفقر ،

والعدل في الرضا والغضب)).[1] **وقال أبو الدرداء** ﷺ : إذا أصبح الرجل اجتمع هواه وعمله وعلمه ؛ فإن كان عمله تبعا لهواه فيومه يوم سوء ، وإن كان عمله تبعا لعلمه فيومه يوم صالح . **وقال الأصمعي سمعت رجلا يقول :**

إن الهوان هو الهوى قلب اسمه ... فإذا هويت فقد لقيت هوانا

وسئل ابن المقفع عن الهوى فقال : هوان سرقت نونه ، **فأخذه شام فنظمه وقال :**

---

[1] **حديث أنس** : أخرجه الطبراني في الأوسط (٣٢٨/٥ ، رقم ٥٤٥٢) ، قال الهيثمي (٩١/١) : فيه زائدة بن أبي الرقاد وزياد النميري وكلاهما مختلف في الاحتجاج به . والبيهقي في شعب الإيمان (٤٧١/١ ، رقم ٧٤٥) ، والقضاعي في الشهاب (٢١٥/١ ، رقم ٣٢٦) ، وأبو نعيم في الحلية (٣٤٣/٢) **وقال** : هذا حديث غريب من حديث قتادة .

نون الهوان من الهوى مسروقة ... فإذا هويت فقد لقيت هوانا

وقال آخر :

إن الهوى لهو الهوان بعينه ... فإذا هويت فقد كسبت هوانا

وإذا هويت فقد تعبّدك الهوى ... فاخضع لحبك كائنا من كانا

ولعبد الله بن المبارك :

ومن البلايا للبلاء علامة ... ألا يرى لك عن هواك نزوع

العبد عبد النفس في شهواتها ... والحر يشبع تارة ويجوع

ولابن دريد :

إذا طالبتك النفس يوما بشهوه ... وكان إليها للخلاف طريق

فدعها وخالف ما هويت فإنما ... هواك عدو والخلاف صديق

وقال أحمد بن أبي الحوارى : مررت براهب فوجدته نحيفا **فقلت له :** أنت عليل. **قال :** نعم. **قلت :** مذ كم ؟ **قال :** مذ عرفت نفسي! **قلت :** فتداوى ؟ **قال :** قد أعياني الدواء وقد

عزمت على الكي. **قلت** : وما الكي ؟ **قال** : مخالفة الهوى.[1]

وقال سهل بن عبد الله التستري : هواك داؤك . فان خالفته فدواؤك .

وقال وهب : إذا شككت في أمرين ولم تدر خيرهما فانظر أبعدهما من هواك فأته.[2]

وللعلماء في هذا الباب في ذم الهوى ومخالفته كتب وأبواب أشرنا إلى ما فيه كفاية منه ؛ **وحسبك بقوله تعالى** : {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى. فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى} [النازعات : ٤١].

قال الحسن : أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ؟ **قال** : هو المنافق لا يهوى شيئا إلا ركبه .

---

[1] **راجع** : شرح سنن أبي داود "، للشيخ عبد المحسن.

[2] **راجع** : " شرح سنن أبي داود " ، للشيخ عبد المحسن.

وقال الحسن : المنافق يعبد هواه لا يهوى شيئا إلا ركبه.

وسُئل قتادة : أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ؟ **قال** : إذا هوى شيئا ركبه .

عن ثابت عن أنس أن النبي ﷺ، قال : ((حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات)).[1]

قال الخليل بن خدويه :مر إبراهيم الخليل فرأى عبدا في الهواء متعبدا ، **فقال له** : بم نلت هذه المنزلة من الله ؟ قال بأمر يسير فطمت نفسي عن الدنيا ولم أتكلم فيما لا يعنيني ، ونظرت فيما أمرت به فعملت به ، ونظرت فيما نهاني عنه

---

[1] **حديث أنس** : أخرجه أحمد (٣/٢٥٤ ، رقم ١٣٦٩٦) ، وعبد بن حميد (ص٣٩١ ، رقم ١٣١١) ، والدارمي (٢/٤٣٧ ، رقم ٢٨٤٣) ، والترمذي (٤/٦٩٣ ، رقم ٢٥٥٩) **وقال** : حسن غريب . وأبو يعلى (٦/٣٣ ، رقم ٣٢٧٥) . وأخرجه مسلم (٤/٢١٧٤ ، رقم ٢٨٢٢) ، وابن حبان (٢/٤٩٢ ، رقم ٧١٦) .

فانتهيت عنه ، فأنا إن سألته أعطاني ، وإن دعوته أجابني ، وإن أقسمت عليه أبر قسمي ، سألته أن يسكنني الهواء فأسكنني .[1]

وعن إدريس ، قال : سمعت وهب بن منبه ، **يقول** : كان في بني إسرائيل رجلان بلغت بهما عبادتهما أن مشيا على الماء ، فبينما هما يمشيان في البحر إذا هما برجل يمشي في الهواء ، **فقالا له** : يا عبد الله بأي شيء أدركت هذه المنزلة ؟ **قال** : بيسير من الدنيا فطمت نفسي عن الشهوات ، وكففت لساني عما لا يعنيني ، ورغبت فيما دعاني إليه ، ولزمت الصمت فإن أقسمت على الله أبر قسمي وإن سألته أعطاني.[2]

---

[1] **راجع** : " شرح سنن أبي داود "، للشيخ عبد المحسن .

[2] **انظر** : المصدر السابق.

قال حذيفة بن قتادة المرعشي : كنت في المركب فكسر بنا فوقعت أنا وامرأة على لوح من ألواح المركب ، فمكثنا سبعة أيام ، **فقالت المرأة** : أنا عطشى فسألت الله تعالى أن يسقيها فنزلت علينا من السماء سلسلة فيها كوز معلق فيه ماء فشربت ، فرأيت رجلا جالسا في الهواء متربعا ، **فقلت** : من أنت ؟ **قال** : من الإنس . **قلت** : فما الذي بلغك هذه المنزلة ؟ **قال** : آثرت مراد الله على هواي فأجلسني كما تراني .

عن مبادر بن عبيد الله الصوفي ، قال : سمعت بعض أصحابنا ، **يقول** : رأيت غرفة في الهواء وفيها رجل فسألته عن حاله التي بلغته إلى تلك المنزلة ؟ **فقال** : تركت الهوى فأدخلت في الهوا . **وعن أبي الدرداء ، قال** : إذا أصبح الرجل اجتمع هواه وعمله ، فإن كان عمله تبعا لهواه فيومه يوم سوء ، وإن كان هواه تبعا لعمله فيومه يوم صالح .[1]

---

[1] **راجع** : " شرح سنن أبي داود "، للشيخ عبد المحسن .

عن جعفر بن سليمان، قال : سمعت مالك بن دينار ، يقول : من غلب شهوات الدنيا ، فذلك الذي يفرق الشيطان من ظله .

قال الأصمعي : سمعت أعرابيا ، يقول : إذا أشكل عليك أمران لا تدري أيهما أرشد فخالف أقربهما من هواك ، فإن أكثر ما يكون الخطأ مع متابعة الهوى .

قال ابن السماك : إن شئت أخبرتك بدائك ، وإن شئت أخبرتك بدوائك ، داؤك هواك ، ودواؤك ترك هواك .

عن الأصمعي ، قال : مررت بأعرابي به رمد شديد ودموعه تسيل ، **فقلت** : ألا تمسح عينيك ؟ **فقال** : زجرني الطبيب ، ولا خير فيمن إذا زجر لا ينزجر ، وإذا أمر لا يأتمر ، **فقلت** : أما تشتهي شيئا ؟ **فقال** : أشتهي ولكن أحتمي ؛ لأن أهل النار غلبت شهواتهم فلم يحتموا فهلكوا .[1]

---

[1] **راجع** : المصدر السابق .

قال ابن القيم : ولا ينبغي للعاقل أن ينزل عن رتبة بها شرف وارتفع إلى مقام من حط ، فأما العقل فإنه يراقب العواقب وينظر في المصالح فمثله كمثل الرجل الحازم والطبيب الناصح .

ومثل الهوى كمثل الصبي الجاهل والمريض الشره ، فينبغي للبيب إذا اختلف عقله وهواه ، وقد علم أن العقل عالم ناصح أن يستشيره ، أن يصبر على مضض ما يأمر به ، ويكفيه في إيثار العقل علم بفضله .

فإن رام زيادة دليل على صحة قوله فليتأمل عواقب ما ينجيه الهوى على أربابه من هتك الستار والفضيحة بين الخلق وحط المنزلة وفوت مما يوضح له الدليل أن يقدر بلوغ غرضه قبل نيله .[1] ثم ينظر في حاله بعد انقضاءه ، وما اكتسبه ويزن الالتذاذ بالجناية فيعلم حينئذ أنه قد خسر أضعاف ما ربح ،

---

[1] راجع : " الطب الروحاني "، للعلامة ابن القيم .

وقد أنشدوا :

كم لذة مستفزة فرحاً قد انجلت عن غموم آفات

كم شهوات سلبن صاحبها ثوب الديانات والمروءات

واعلم أن الإنسان إذا وافق هواه وإن لم يضره وجد من نفسه ذلاً لمكان أنه مغلوب ، وإذا قهر هواه وجد في نفسه عزاً لأجل أنه غالب .

ثم أنت ترى الناس إذا شاهدوا زاهداً تعجبوا منه وقبلوا يده وما ذاك إلا لأنه قوي على ترك ما ضعفوا عنه من مخالفة الهوى .

***

الباب الرابع

في دفع العشق عن النفس

هذا مرض قد تلف به خلق كثير تارة في أبدانهم وتارة في أديانهم وتارة فيهما . ولأجله وضعت كتاب ـ **ذم الهوى** ـ وقد ذكرت هناك من الأدوية ما يكفي ويشفي ، إلا إني أذكر هاهنا جملة لئلا يخلو الكتاب مما قد رسم فيه.

فأقول من احتمى عن التخليط بغض البصر وكف النظر سلم من هذا المرض ؛ فإذا لم يحتم حصل عنده من المرض بمقدار تخليطه ، فإن تدارك الأمر قبل استحكامه فربما نفع الدواء وإن تركه إلى أن يستحكم لم ينفعه علاج.

عن أنس بن مالك ﷺ ، **قال** : سمعت عمر بن الخطاب ، ﷺ يوما وخرجت معه حتى دخل حائطا ، فسمعته ، **يقول** : وبيني وبينه جدار وهو في جوف الحائط : ((عمر بن الخطاب أمير المؤمنين بخ ، والله لتتقين الله ، ابن الخطاب

أو ليعذبنك)). [1] **قال مالك بن دينار** : رحم الله عبدا ، **قال لنفسه النفيسة** : ألست صاحبة كذا ؟ ألست صاحبة كذا ؟ ثم ذمها ثم خطمها ، ثم ألزمها كتاب الله ؛ فكان لها قائدا.[2]

وقال إبراهيم التيمي : مثلت نفسي في الجنة ، آكل ثمارها ، وأشرب من أنهارها ، وأعانق أبكارها ، ثم مثلت نفسي في النار ، آكل من زقومها ، وأشرب من صديدها ، وأعالج سلاسلها وأغلالها ؛ **فقلت لنفسي** : أي نفسي ، أي شيء تريدين ؟ ، **قالت** : أريد أن أرد إلى الدنيا ؛ فأعمل صالحا **قال : قلت** : فأنت في الأمنية فاعملي .[3]

---

[1] **أخرجه ابن أبي الدنيا** في " محاسبة النفس "، رقم (٣).

الحائط : البستان أو الحديقة وحوله جدار.

بخ : كلمة تقال لاستحسان الأمر وتعظيم الخير.

[2] **أنظر**: " محاسبة النفس"، لابن أبي الدنيا.

[3] **الأغلال جمع الغُل** : وهو طوق من حديد أو جلد يجعل في عنق الأسير أو المجرم أو في أيديهما.

واعلم أن مجرد النظر إلى المستحسن لا يكاد يوجب العشق ، وإنما يزداد النظر يحصله ويعينه قوة الطمع ، فيساعده الشباب والشهوة. فمن أراد العلاج فليبادر به قبل أن يستحكم المرض.

وذلك بقطع السبب والصبر على ذلك خوف الله تعالى وزجر النفس الأبية عن مواقف الذل وتذكر عيوب المحبوب الباطنة..

كما قال ابن مسعود : إذا أعجبت أحدكم امرأة فليذكر مثالبها.

قال ابن القيم : ومتى كان المحبوب مقدوراً عليه مباحاً كان الجمع بينهما أعظم الداء ، وإلا فالنكاح في الجملة يخفف المرض ، واستجداد الزوجات واستحداث الجواري وطول السفر والتفكر في خيانة المحبوب وتجنيه .[1]

---

[1] **راجع** : " الطب الروحاني "، للعلامة ابن القيم.

والنظر في كتب الزهد وذكر الموت وعيادة المرضى وزيارة القبور ، ثم يتفكر في وجود غرضه وانقضائه وسآمته مع الزمان وتغير الخلق.

وليتصفح العبر في نفسه وغيره فلعل غيره يأخذ بيده فينتاشه من هذه الهوة ويجتذبه من هذه الورطة.

قال مالك بن دينار: سمعت الحجاج ، يخطب ، **ويقول :** امرأ وزن نفسه ، امرأ اتخذ نفسه عدوا ، امرأ حاسب نفسه قبل أن يصير الحساب إلى غيره ، امرأ أخذ بعنان عمله فنظر أين يريد ؟ امرأ نظر في مكياله ، امرأ نظر في ميزانه ، فما زال يقول امرأ حتى أبكاني .[1]

---

[1] **راجع** : " محاسبة النفوس "، **العِنان** : هو اللجام الذي تقاد به الدابة.

عن وهب بن منبه ، قال : مكتوب في حكمة آل داود : حق على العاقل أن لا يغفل عن أربع ساعات ، ساعة يناجي فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يخلو فيها مع إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه ويصدقونه عن نفسه ، وساعة يخلو فيها بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ويحمد ؛ فإن في هذه الساعة عونا على تلك الساعات ، وإجماما للقلوب ، وحق على العاقل أن لا يرى ظاعنا إلا في ثلاث ، زاد لميعاد أو مرمة لمعاش أو لذة في غير محرم ، وحق على العاقل أن يكون عارفا بزمانه ، حافظا للسانه ، مقبلا على شأنه .[1]

---

[1] **أنظر** : المصدر السابق.

المناجاة : حديث العبد لربه سرا بالتضرع أو الدعاء أو ما يشاء.

الظاعن : المسافر .

الزاد : هو الطعام والشراب وما يُتَبَلَّغُ به ، ويُطْلق على كل ما يُتَوصَّل به إلى غاية بعينها .

عن جعفر بن برقان ، أن عمر بن الخطاب ، ﷺ كتب إلى **بعض عماله فكان في آخر كتابه** : أن حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدة ، فإنه من حاسب نفسه في الرخاء قبل حساب في الشدة ؛ عاد مرجعه إلى الرضا والغبطة ، ومن ألهته حياته ، وشغلته أهواؤه عاد أمره إلى الندامة والحسرة فتذكر ما توعظ به لكيما تنهى عما ينهى عنه وتكون عند التذكرة والموعظة من أولي النهى .[1]

عن الحسن ، قال : المؤمن قوام على نفسه يحاسب نفسه لله عز وجل ، وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا ، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة ، إن المؤمن يفجأه الشيء ويعجبه ، **فيقول** : والله أني لأشتهيك وإنك لمن حاجتي ، ولكن والله ، ما صلة إليك هيهات ، **حيل بيني وبينك ويفرط**

---

[1] **راجع** : " محاسبة النفوس ".

منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول : هيهات ما أردت إلى هذا وما لي ولهذا والله ما أعذر بهذا والله لا أعود إلى هذا أبدا إن شاء الله ومالي ولهذا ، والله ما أعذر بهذا والله لا أعود إلى هذا أبدا إن شاء الله ، إن المؤمنين قوم أوقفهم القرآن وحال بينهم وبين هلكتهم أن المؤمن أسير في الدنيا يسعى في فكاك رقبته لا يأمن شيئا حتى يلقى الله يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه ، وفي بصره ، وفي لسانه ، وفي جوارحه ، مأخوذ عليه في ذلك كله .[1]

عن عبد السلام بن النعمان بن بشير الأنصاري ، أن جعفر بن أبي طالب حين قتل دعا الناس : يا عبد الله بن رواحة ، يا عبد الله بن رواحة ، وهو في جانب العسكر ومعه ضلع

---

[1] **شق** : صعب.

حيل : حجز ومنع.

وجمل منهشة ، ولم يكن ذاق طعاما قبل ذلك بثلاث ، فرمى بالضلع ، **ثم قال** : وأنت مع الدنيا ، ثم تقدم فقاتل فأصيب **أصبعه فارتجز فجعل يقول** : هل أنت إلا أصبع دميت ، وفي سبيل الله ما لقيت يا نفس ، إلا تقتلي تموتي هذا حياض الموت قد صليت وما تمنيت فقد لقيت إن تفعلي ؛ فعلها هديت وإن تأخرتي ؛ فقد شقيتي.

، **ثم قال** : يا نفس ، إلى أي شيء تتشوفين إلى فلانة ، فهي طالق ثلاثا وإلى فلان وفلان – غلمان له – وإلى معجف – حائط له – **فهو لله ولرسوله** :

يا نفس ، ما لك تكرهين الجنة أقسم بالله لتنزلنه طائعة أو لتكرهنه فطالما قد كنت مطمئنه هل أنت إلا نطفة في شنه قد أجلب الناس وشدو الرنة .[1]**عن حميد بن هلال ، قال** : كان

---

[1] **راجع** : " محاسبة النفوس "، **دمي الجرح** : خرج منه الدم ولم يسل. الحائط : البستان أو الحديقة وحوله جدار.

الأسود بن كلثوم إذا مشى نظر إلى قدميه ، **قال** : ودور الناس إذ ذاك فيها تواضع فعسى أن يفجأ النسوة ، **فيقول بعضهن لبعض** : كلا إنه الأسود بن كلثوم إنه لا ينظر فلما قرب غازيا ، **قال** : اللهم ، إن هذه النفس تزعم في الرخاء أنها تحب لقاك ، فإن كانت صادقة. فارزقها ذاك ، وإن كانت كاذبة ؛ فاحملها عليه وإن كرهت ؛ فاجعل ذلك قتلا في سبيلك ، وأطعم لحمي سباعا وطيرا. **قال** : فانطلق في طائفة من ذلك الجيش الذي خرج فيه حتى دخلوا حائطا فيه ثلمة ، وجاء العدو حتى قام على الثلمة ، فنزل عن فرسه ، وضرب وجهه فانطلق غايرا ، ثم عمد إلى الماء في الحائط ، فتوضأ منه ، وصلى.

قال : تقول العجم هكذا استسلام العرب. فلما قضى صلاته قاتلهم حتى قتل وعظم الجيش على ذلك الحائط وفيهم أخوه.

فقيل لأخيه : ألا تدخل الحائط فتنظر ما أصيبت من عظام أخيك فتجبه ، **قال** : ما أنا بفاعل شيئا دعا به أخي فاستجيب له .[1]**عن عبد الله بن قيس أبو أمية الغفاري** ، **قال** : كنا في غزاة لنا ، فحضر عدوهم ، فصيح في الناس ، فهم يثوبون إلى مصافهم ، وفي يوم شديد الريح ، إذا رجل أمامي رأس فرسي عند عجز فرسه ، وهو يخاطب نفسه.

فيقول : أي نفسي ، ألم أشهد مشهد كذا وكذا ؟ **فقلت لي** : أهلك وعيالك ، وأطعتك رجعت ، ألم أشهد مشهد كذا وكذا ؟ ، **فقلت لي** : أهلك وعيالك ، فأطعتك ، فرجعت ، والله ، لأعرضنك اليوم على الله عز وجل ، أخذك أو تركك ، فقلت : لأرمقنه اليوم فرمقته فحمل الناس على عدوهم فكان في

---

(١) **الحائط** : البستان أو الحديقة وحوله جدار.

الثلمة : الثقب أو الفتحة.

أوائلهم ، ثم إن العدو حمل على الناس فانكشفوا وكان في حماتهم ، ثم حملوا على عدوهم فكان في أوائلهم ، ثم حمل العدو وانكشف الناس فكان في حماتهم ، **قال** : فوالله ، مازال ذلك دأبه حتى رأيته صريعا ، فعددت به وبدابته ستين أو أكثر من ستين طعنة .[1]

عن سفيان الثوري ، **قال** : جلست ذات يوم أحدث ومعنا سعيد بن السائب الطائفي فجعل سعيد يبكي حتى رحمته **فقلت** : يا سعيد ، ما يبكيك وأنت تسمعني أذكر أهل الخير وفعالهم ؟ **قال** : يا سفيان وما يمنعني من البكاء وإذا ذكر

---

[1] **الغزاة** : الغزوة ، من الغزو وهو الخروج إلى محاربة العدو.

المصاف : جمع مصف وهو موضع الحرب الذي تكون فيه الصفوف.

رمق : نظر وتأمل وراقب.

الدأب : الشأن والعادة.

صريع : قتيل.

مناقب أهل الخير كنت منهم بمعزل ؟ قال : يقول سفيان : حق له أن يبكي .[1] **قال وهيب بن الورد** : بينما امرأة في الطواف ذات يوم ، **وهي تقول** : يا رب ذهبت اللذات وبقيت التبعات يا رب سبحانك وعزتك إنك لأرحم الراحمين يا رب ما لك عقوبة إلا النار ، **فقالت صاحبة لها كانت معها** : يا أخية دخلت بيت ربك اليوم قالت : والله ما أرى هاتين القدمين وأشارت إلى قدميها أهلا للطواف حول بيت ربي فكيف أراهما أهلا أطأ بهما بيت ربي ؟ وقد علمت حيث مشتا وإلى أين مشتا ؟ .[2]

عن مسلم بن سعيد الواسطي ، أخبرني حماد بن جعفر بن زيد ، أن أباه ، أخبره قال : خرجنا في غزوة إلى كابل وفي

---

[1] **المناقب** : **الصفات** ، وأكثر ما تستعمل في الفضائل وما يحمد من الأفعال.

[2] **يطأ** : يدوس بقدمه.

الجيش صلة بن أشيم فنزل الناس عند العتمة وصلوا فصلى ثم **اضطجع فقلت** : لأرمقن عمله فالتمس غفلة الناس حتى إذا قلت هدأت العيون وثب فدخل غيضة قريبا منا ودخلت على إثره فتوضأ ثم قام يصلي وجاء أسد حتى دنا منه. **قال : قصدت شجرة قال** : فتراه التقت أو عد به جزوا حتى سجد ، **فقلت** : الآن يفترسه فلا شيء ، **فجلس ثم سلم ثم قال** : أيها السبع اطلب الرزق في مكان آخر ، **فولى وإن له لزئيرا أقول** : تصدع الجبال منه ، **قال** : فما زال كذلك يصلي حتى لما كان عند الصبح جلس فحمد الله بمحامد لم أسمع بمثلها إلا ما شاء الله ثم ، **قال** : اللهم إني أسألك أن تجيرني من النار أو مثلي يجترئ أن يسألك الجنة ؟ ، **قال** : ثم رجع فأصبح كأنه بات على الحشايا وأصبحت وبي من الفترة شيء الله به عليم.[1]

---

[1] **العتمة** : صلاة العشاء.

عن الجلد بن أيوب ، قال : كان عابد في بني إسرائيل على صومعته منذ ستين سنة وإنه أتي في منامه ، **فقيل له :** إن فلانا الإسكاف خير منك فلما انتبه.

قال : رؤيا ثم سكت فلما كان من القائلة أيضا رأى مثل ذلك في منامه فلم يزل يرى في منامه مرارا حتى تبين له أنه أمر فنزل من صومعته فأتى الإسكاف فلما رآه الإسكاف قام من عمله وتلقاه وجعل يمسح به.

فقال له : ما أنزلك من صومعتك ؟ **قال :** أنت أنزلتني أخبرني ما عملك ؟ **فكأنه كره أن يخبره ثم قال :** أجل أعمل النهار وأكسب شيئا فما رزق الله من شيء أتصدق بنصفه

رمق : نظر وتأمل وراقب.

التمس الشيء : طلبه.

الدنو : الاقتراب.

وآكل مع عيالي النصف وأصوم النهار فانطلق من عنده فلما **كان بعد أيضا قيل للراهب** : سله مم صفرة وجهك ؟ فأتاه **فقال** : مم صفرة وجهك ؟ **فقال** : إني رجل لا يكاد يرفع لي أحد إلا ظننت أنه في الجنة وأنا في النار وإنما فضل علي الراهب بإزرائه على نفسه .[1]

قال العلامة ابن القيم : كما روينا أن رجلاً كان يهوى غلاماً فنظر يوماً في المرآة فرأى طاقة شيب فهجر الغلام ، فكتب الغلام إليه :

مالي جيفت وكنت لا أجفي ودلائل الهجران لا تخفى
وأراك تشربني فتمزجني ولقد عهدتك شاربي صرفاً

فكتب إليه في الجواب :

أتَصَابي مع الشَّمط سمتني خطة شطط

---

[1] **الصومعة** : كل بناء متصمع الرأس ، أي : متلاصقه والمراد مكان العبادة للرهبان.

لا تلمني على جفا ي فحسبي بما فرط
أنا رهن بما جنيـ ت فذرني من الغلط
قد رأينا أبا الخلا ئق في ذلة هبط

دعاء:

عن أبي سعيد ﷺ **قال : قال رسول الله** ﷺ : ((ألا أعلمك كلاما إذا قلته أذهب الله همك ، وقضى عنك دينك ، **قل : إذا أصبحت وإذا أمسيت** : اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من الجبن والبخل ، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال)).[1]

***

[1] **حديث أبي سعيد** : أخرجه أبو داود (٢/٩٣ ، رقم ١٥٥٥) .

الباب الخامس

قال ابن القيم : وقد يقع الشره في جمع المال وهو من الجنون البارد إذا زاد على قدر الحاجة ، لأن المال لا يراد لنفسه وإنما يراد لغيره .

ولا ينكر على من جمع مالا غنى للنفس عنه ، فاستغنى به عن الناس ، وأغنى أولاده ، وبذل بعضه للمحتاجين ، إلا أنه ينبغي للعاقل بعد حصول المقدار والمتوسط من ذلك أن لا يضيع الزمان الشريف .

وأن يخاطر بالروح التي لا قيمة لها في الأسفار وركوب البحار ، **وما أحسن قول الشاعر** :

ومن ينفق الأيام في جمع ماله.. مخافة فقر فالذي فعل الفقر

وكم قد رأينا وسمعنا عن أقوام يقترون على أنفسهم في الإنفاق ، ويركبون مع كبر السن البحار ليربحوا بزعمهم فهلكوا في أسفارهم .

وما بلغوا بعض أغراضهم ؛ وهذا المرض ينبغي أن يداوي بتلمح المقصود من المال ، والموازنة بين حصوله وبين المخاطرة بأَنْفَسْ نَفِيس وهي النفس والوقت ، فمن شاور عقله فهم المراد .

ومن غلبه مرض الحرص هلك في بيداء الشره .

ولا وارث إلا المطية والرحل .

يزداد التسخط في الناس وعدم الرضى بما رزقوا إذا قلت فيهم القناعة. وحينئذ لا يرضيهم طعام يشبعهم ، ولا لباس يواريهم على ما يحتاجونه في كل شيء، ولن يشبعهم شيء ؛ لأن أبصارهم وبصائرهم تنظر إلى من هم فوقهم ، ولا تبصر من هم تحتهم ؛ فيزدرون نعمة الله عليهم ، ومهما أوتوا طلبوا المزيد، فهم كشارب ماء البحر لا يرتوي أبدًا.

ومن كان كذلك فلن يحصل السعادة أبدًا؛ لأن سعادته لا تتحقق إلا إذا أصبح أعلى الناس في كل شيء ، وهذا من

أبعد المحال ؛ ذلك أن أي إنسان إن كَمُلت له أشياء قصُرَت عنه أشياء، وإن علا بأمور سَفُلَت به أمور، ويأبى اللّه تعالى الكمال المطلق لأحد من خلقه كائنا من كان؛ لذا كانت القناعة والرضى من النعم العظيمة، والمنح الجليلة التي يغبط عليها صاحبها.

مفهوم القناعة :

توجد علاقة متينة بين القناعة وبين الزهد والرضى، ولذلك عرف بعض أهل اللغة القناعة بالرضى، والقانع بالراضي.

قال ابن فارس : "**قَنِع قناعةً:** إذا رضي وسميت قناعة؛ لأنه يقبل على الشيء الذي له راضيًا".[1] **وأما الزهد فهو:** ضد الرغبة والحرص على الدنيا، والزهادة في الأشياء ضد الرغبة [2]، وذكر ابن فارس أن مادة (زهد) أصل يدل على قلة

---

[1] **لسان العرب** ، مادة "قنع" (١١ / ٣٢١).

[2] **معجم مقاييس اللغة** ، مادة "قنع) (٥ / ٣٣).

الشيء، **قال: والزهيد:** الشيء القليل.[1] عرف شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله **الزهد بقوله** : "ترك الرغبة فيما لا ينفع في الدار الآخرة ، وهو فضول المباح التي لا يستعان بها على طاعة اللّه ﷻ.[2]

ونحا فريق من أهل الاصطلاح إلى تقسيم القناعة ، وجعل أعلى مراتبها الزهد كما هو صنيع الماوردي؛ **حيث قال :** "**والقناعة قد تكون على ثلاثة أوجه : الوجه الأول:** أن يقتنع بالبلغة من دنياه ويصرف نفسه عن التعرض لما سواه ؛ وهذا أعلى منازل أهل القناع .

ثم ذكر **قول مالك ابن دينار** : "أزهدُ الناس من لا تتجاوز رغبته من الدنيا بلُغته".

---

[1] **لسان العرب**، مادة "زهد" (٦ / ٩٧).

[2] **معجم مقاييس اللغة**، مادة "زهد" (٣ / ٣٠).

الوجه الثاني : أن تنتهي به القناعة إلى الكفاية ، ويحذف الفضول والزيادة. وهذا أوسط حال المقتنع ، **وذكر فيه قول بعضهم:** "من رضي بالمقدور قنع بالميسور".[1]

الوجه الثالث : أن تنتهي به القناعة إلى الوقوف على ما سنح، فلا يكره ما أتاه وإن كان كثيرًا، ولا يطلب ما تعذر وإن كان يسيرا . وهذه الحال أدنى منازل أهل القناعة؛ لأنها مشتركة بين رغبة ورهبة ، **فأما الرغبة** : فلأنه لا يكره الزيادة على الكفاية إذا سنحت، وأما الرهبة، فلأنه لا يطلب المتعذر عن نقصان المادة إذا تعذرت. وبناء على تقسيم الماوردي فإن المنزلة الأولى هي أعلى منازل القناعة وهي الزهد أيضا والمنزلة الثالثة هي التي عليها أكثر الذي عرفوا القناعة وهي

---

[1] **مجموع الفتاوى** (١١ / ٢٧) وانظر : مكارم الأخلاق عند ابن تيمية (٢٥٩).

مقصود رسالتنا تلك. وعلى هذا المعنى فإن القناعة لا تمنع التاجر من تنمية تجارته، ولا أن يضرب المسلم في الأرض يطلب رزقه ، ولا أن يسعى المرء فيما يعود عليه بالنفع ؛ بل كل ذلك مطلوب ومرغوب.

وإنما الذي يتعارض مع القناعة أن يغش التاجر في تجارته ، وأن يتسخط الموظف من مرتبته ، وأن يتبرم العامل من مهنته، وأن ينافق المسئول من أجل منصبه ، وأن يتنازل الداعية عق دعوته أو يميِّع مبدأه رغبة في مال أو جاه ، وأن يحسد الأخ أخاه على نعمته ، وأن يذلّ المرء نفسه لغير الله تعالى لحصول مرغوب.[1]

وليس القانع ذلك الذي يشكو خالقه ورازقه إلى الخلق ، ولا الذي يتطلع إلى ما ليس له ، ولا الذي يغضب إذا لم يبلغ ما تمنى من رُتَب الدنيا؛ لأن الخير له قد يكون عكس ما تمنى.

---

[1] **أنظر** : مختصرا من أدب الدنيا والدين (٣٢٨- ٣٢٩).

وفي المقابل فإن القناعة لا تأبى أن يملك العبد مثاقيل الذهب والفضة ، ولا أن يمتلئ صندوقه بالمال ، ولا أن تمسك يداه الملايين ؛ ولكن القناعة تأبى أن تَلِجَ هذه الأموال قلبه ، وتملك عليه نفسه؛ حتى يمنع حق اللّه فيها ، ويتكاسل عن الطاعات، ويفرط في الفرائض ! من أجلها ، ويرتكب المحرمات من ربًا ورشوة وكسب خبيث حفاظا عليها أو تنمية لها.

وكم من صاحب مال وفير ، وخير عظيم، رُزق القناعة! فلا غشّ في تجارته ، ولا منع أجَراءه حقوقهم ، ولا أذل نفسه من أجل مال أو جاه ، ولا منع زكاة ماله ؛ بل أدى حق اللّه فيه فرضًا وندبًا، مع محافظةٍ على الفرائض، واجتناب للمحرمات. إن ربح شكر ، وإن خسر رضي ؛ فهذا قنوع وإن ملك مال قارون . وكم من مستور يجد كفافًا؛ ملأ الطمع قلبه حتى لم يرضه ما قُسِم له ! فجزع من رزقه ، وغضب على رازقه ،

وبث شكواه للناس ، وارتكب كل طريق محرم حتى يغني نفسه؛ فهذا منزوع القناعة وإن كان لا يملك درهمًا ولا فلسًا.

فوائد القناعة:

إن للقناعة فوائد كثيرة تعود على المرء بالسعادة والراحة والأمن والطمأنينة في الدنيا، **ومن تلك الفوائد:**

١- امتلاء القلب بالإيمان بالله سبحانه تعالى والثقة به ، والرضى بما قدر وقَسَم، وقوة اليقين بما عنده سبحانه وتعالى ذلك أن من قنع برزقه فإنما هو مؤمن ومتيقن بأن الله تعالى قد ضمن أرزاق العباد ، وقسمها بينهم حتى ولو كان ذلك القانع لا يملك شيئًا.

يقول ابن مسعود ﷺ : إن أرجى ما أكون للرزق إذا قالوا: ليس في البيت دقيق ".

وقال الإمام أحمد رحمه اللّه تعالى : أسرُّ أيامي إليَّ يوم أصبح وليس عندي شيء.

وقال الفضيل بن عياض رحمه اللّه تعالى: أصل الزهد الرضى من الله ﷻ. **وقال أيضًا:** القُنُوع هو الزهد وهو الغنى.

وقال الحسن رحمه الله تعالى : إن من ضعف يقينك أن تكون بما في يدك أوثق منك بما في يد اللّه ﷻ.[1]

٢- الحياة الطيبة : قال تعالى: { مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [النحل: ٩٧] ، فسر الحياة الطيبة علي وابن عباس والحسن رضي الله عنهم ، فقالوا : الحياة الطيبة هي القناعة [2]، وفي هذا المعنى قال ابن الجوزي

---

[1] أنظر هذه الآثار في : جامع العلوم والحكم (٢ / ١٤٧) شرح حديث رقم (٣١).

[2] أخرجه عن علي والحسن الطبري في تفسيره (١٤ / ١٧) عند تفسير الآية (٩٧) من سورة النحل، وأخرجه الحاكم عن ابن عباس وصححه ووافقه الذهبي (٢ / ٣٥٦).

رحمه الله تعالى : من قنع طاب عيشه، ومن طمع طال طيشه.[1]

٣- تحقيق شكر المنعم سبحانه وتعالى ، ذلك أن من قنع برزقه شكر اللّه تعالى عليه، ومن تقالّه قصرّ في الشكر ، وربما جزع وتسخط- والعياذ بالله .

ولذا قال النبي ﷺ: ((كن ورعا تكن أعبد الناس ، وكن قنعًا تكن أشكر الناس)).[2]

ومن تسخط من رزقه فإنما هو يسخط على من رزقه ، ومن شكا قلّته للخلق فإنما هو يشكو خالقه سبحانه وتعالى للخلق.

وقد شكا رجل إلى قوم ضيقًا في رزقه ، فقال له بعضهم :

---

[1] أخرجه ابن ماجه (٤٢١٧)، والبيهقي في الزهد الكبير (٨١٨)، وأبو نعيم في الحلية (١٠ / ٣٦٥)، وحسنه البوصيري في الزوائد (٣ / ٣٠٠).

[2] أنظر : نزهة الفضلاء ترتيب سير أعلام النبلاء (١٥٠٤).

"شكوت من يرحمك إلى من لا يرحمك". [1] ٤- الفلاح والبشرى لمن قنع: فعن فضالة بن عبيد رضي الله تعالى عنه : أنه سمع رسول الله ﷺ **يقول:**

((طوبى لمن هدي إلى الإسلام، وكان عيشه كفافًا، وقنع" ، وعن عبد اللّه بن عمرو رضي الله عنهما : أن رسول الله ﷺ ، قال: ((قد أفلح من أسلم ورزق كفافًا، وقنعه اللّه بما آتاه)).[2]

٥- الوقاية من الذنوب التي **تفتك بالقلب وتذهب الحسنات:** كالحسد ، والغيبة ، والنميمة ، والكذب ، وغيرها من الخصال الذميمة والآثام العظيمة ؛ ذلك أن الحامل على الوقوع في كثير من تلك الكبائر غالبًا ما يكون استجلاب دنيا أو دفع

---

[1] **أنظر :** عيون الأخبار لابن قتيبة (٣ / ٢٠٦).

[2] **أخرجه أحمد** (٦ / ١٩) ، والترمذي (٢٢٤٩) وقال: حسن صحيح والحاكم وصححه على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي (١ / ٣٤).

نقصها. فمن قنع برزقه لا يحتاج إلى ذلك الإثم ، ولا يداخل قلبه حسد لإخوانه على ما أوتوا ؛ لأنه رضي بما قسم له.[1]

قال ابن مسعود ﷺ : "اليقين ألا ترضي الناس بسخط الله؛ ولا تحسد أحدًا على رزق الله، ولا تلم أحدًا على ما لم يؤتك الله؛ فإن الرزق لا يسوقه حرص حريص، ولا يرده كراهة كاره ؛ فإن الله تبارك وتعالى- بقسطه وعلمه وحكمته جعل الرَّوْح والفرح[2] في اليقين والرضى، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط".[3] **وقال بعض الحكماء:** "وجدت أطول الناس غما الحسود، وأهنأهم عيشًا القنوع ".[4]

---

[1] **أخرجه مسلم** (١٠٥٤)، والترمذي (٢٣٤٩).

[2] **أي : الراحة. انظر** : القاموس (٢٨٢) مادة "روح".

[3] **أخرجه ابن أبي الدنيا في اليقين** (١١٨).

[4] **أنظر** : القناعة لابن السني (٥٨) عن موسوعة نضرة النعيم (٣١٧٣).

٦- حقيقة الغنى في القناعة : ولذا رزقها الله تعالى نبيه محمدا ﷺ وامتن عليه بها فقال تعالى : { وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى } [الضحى: ٨]. فقد نزلها بعض العلماء على غنى النفس؛ لأن الآية مكية، ولا يخفى ما كان فيه ﷺ قبل أن تفتح عليه خيبر وغيرها من قلة المال.

وذهب بعض المفسرين إلى أن الله تعالى جمع له الغنائين: غنى القلب، وغنى المال بما يسر له من تجارة خديجة .

وقد بين عليه السلام : أن حقيقة الغنى غنى القلب فقال رسول الله ﷺ : ((ليس الغنى عن كثرة العَرَض ، ولكن الغنى غنى النفس)) .[1]

وعن أبي ذر رضي الله عنه **قال : قال رسول اللّه** ﷺ : ((يا أبا ذر، أترى كثرة المال هو الغنى ؟)) **قلت** : نعم يا رسول الله ، قال : ((فترى قلة المال هو الفقر؟)) **قلت** : نعم يا رسول

---

[1] **أنظر:** فتح الباري لابن حجر العسقلاني (١١ / ٢٧٧).

اللّـه. قـال: ((إنما الغنى غنى القلب ، والفقر فقر القلب)) [1].

وتلك حقيقة لا مرية فيها ؛ فكم من غني عنده من المال ما يكفيه وولدَه ، ولو عُمِّر ألف سنة؛ يخاطر بدينه وصحته ، ويضحي بوقته يريد المزيد !

وكم من فقير يرى أنه أغنى الناس ؛ وهو لا يجد قوت غدِه !

فالعلة في القلوب : رضًى وجزعًا ، واتساعًا وضيقًا ، وليست في الفقر والغنى.

ولأهمية غنى القلب في صلاح العبد قام عمر بن الخطاب ﷺ خطيبًا في الناس على المنبر **يقول** : إن الطمع فقر ؛ لأن اليأس غنى ، وإن الإنسان إذا أيس من الشيء استغنى عنه.

---

[1] **أخرجه** البخاري (٦٤٤٦)، ومسلم (١٠٥١).

وأوصى سعد بن أبي وقاص ﷺ **ابنه فقال** : يا بني، إذا طلبت الغنى فاطلبه بالقناعة ؛ فإنها مال لا ينفد.

وسئل أبو حازم فقيل له : ما مالك؟" قال : لي مالان لا **أخشى معهما الفقر**: الثقة باللّه، واليأس مما في أيدي الناس.

وقيل لبعض الحكماء : ما الغنى ؟ **قال** : قلة تمنيك ، ورضاك بما يكفيك.

في القناعة، والذل في الطمع : ذلك أن القانع لا يحتاج إلى الناس فلا يزال عزيزًا بينهم ، والطماع يذل نفسه من أجل المزيد ؛ ولذا جاء في حديث سهل بن سعد مرفوعًا : ((شرف المؤمن قيامه بالليل، وعزه استغناؤه عن الناس)) .[1]

وكان محمد بن واسع رحمه اللّه تعالى يبل الخبز اليابس بالماء ويأكله، ويقول : "من قنع بهذا لم يحتج إلى أحد".

---

[1] **أخرجه أحمد** في الزهد (١١٧)، وأبو نعيم في الحلية (١ / ٥٠).

وقال الحسن رحمه الله تعالى : لا تزال كريمًا على الناس ، ولا يزال الناس يكرمونك ،

ما لم تَعَاطَ ما في أيديهم ، فإذا فعلت ذلك استخفوا بك وكرهوا حديثك وأبغضوك".

وقال الحافظ ابن رجب رحمه الله : وقد تكاثرت الأحاديث عن النبي ﷺ بالأمر بالاستعفاف عن مسألة الناس ، والاستغناء عنهم .

فمن سأل الناس ما بأيدهم كرهوه وأبغضوه ؛ لأن المال محبوب لنفوس بني آم ، فمن طلب منهم ما يحبونه كرهوه لذلك.

والإمامة في الدين ، والسيادة والرفعة لا يحصلها المرء إلا إذا استغنى عن الناس ، واحتاج الناس إليه في العلم والفتوى والوعظ. **قال أعرابي لأهل البصرة** : من سيد أهل هذه القرية؟ قالوا : الحسن ، **قال** : بم سادهم ؟ **قالوا** : احتاج

الناس إلى علمه ، واستغنى هو عن دنياهم".[1]فرحمهم الله تعالى ، ورضي الله تعالى عنهم وأرضاهم.

تربيته ﷺ أهله على القناعة :

لقد ربى النبي ﷺ أهله على القناعة بعد أن اختار أزواجه البقاء معه، والصبر على القلة، والزهد في الدنيا حينما خيرهن بين الإمساك على ذلك أو الفراق والتمتع بالدنيا كما[2] قال اللّه تعالى:

{ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا }{ وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا } [الأحزاب: ٢٨، ٢٩]. فاخترن رضي اللّه

---

[1] أنظر : إحياء علوم الدين (٣ / ٢٩٣) ، وجامع العلوم والحكم (٢ / ١٦٩).

[2] راجع : إحياء علوم الدين، وفتح الباري لابن حجر .

عنهن الآخرة ، وصبرن على لأواء الدنيا، وضعف الحال، وقلة المال طمعًا في الأجر الجزيل من اللّه تعالى .

صورة من قناعة الصحابة والسلف الصالح:

وسار على منهج رسول اللّه ﷺ صحابته الكرام رضي اللّه عنهم والتابعون لهم بإحسان؛ فقد عاشوا أول الأمر على الفقر والقلة، ثم لما فتحت الفتوح واغتنى المسلمون بقوا على قناعتهم وزهدهم، وأنفقوا الأموال الطائلة في سبيل الله تعالى،

وهذه نماذج من عيشهم وقناعتهم:

عن أبي هريرة ﷺ قال : "رأيت سبعين من أهل الصفة ما منهم رجل عليه رداء، إما إزار وإما كساء قد ربطوا في أعناقهم، فمنها ما يبلغ نصف الساقين، ومنها ما يبلغ الكعبين، فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته".

ثم فتح الله على المسلمين ، وأصبح المال العظيم يرسل إلى عائشة رضي الله عنها ، فبقيت على قناعتها وزهدها

وأخذت تفرق المال على محتاجيه ؛ فقد بعث إليها معاوية ﷺ بمائة ألف درهم.

قال عروة بن الزبير : فواللّه ما أمست حتى فرقتها،، **فقالت لها مولاتها** : لو اشتريت لنا منها بدرهم لحمًا"! **فقالت**: "ألا قلت لي؟". لقد نسيت نفسهارضي اللّه عنها، وفرقت مالها ، واستمرت على قناعتها بعد وفاة رسول اللّه ﷺ .

وعن أم ذرة قالت: بعث ابن الزبير إلى عائشة بمال في غرارتين يكون مائة ألف ، فدعت بطبق ؛ فجعلت تقسم في الناس، **فلما أمست قالت** : "هاتي يا جارية فطوري "، فقالت أم ذرة : "يا أم المؤمنين ! أما استطعت أن تشتري لنا لحمًا بدرهم؟" قالت: لا تعنفيني، لو أذكرتني لفعلت".[1]

فهل تقتدي نساء المسلمين بعائشة – رضي اللّه عنها– بدلًا من سرف الإنفاق على النفس وحظوظها والزينة؟!.

---

[1] أخرجه أبو نعيم (٢ / ٤٧)، والحاكم (٤ / ١٣).

وعن عامر بن عبد اللّه : أن سلمان الخير حين حضره الموت عرفوا منه بعض الجزع. **قالوا** : ما يجزعك يا أبا عبد اللّه، وقد كانت لك سابقة في الخير؟ شهدت مع رسول اللّه ﷺ مغازي حسنةً ، وفتوحًا عظاما ! **قال** : يجزعني أن حبيبنا ﷺ **حين فارقنا عهد إلينا. قال:** "ليكفِ اليوم منكم كزاد الراكب" فهذا الذي أجزعني؛ فجُمعَ مال سلمان فكان قيمته خمسة عشر دينارًا.[1] وكتب بعض بني أمية إلى أبي حازم رحمه اللّه تعالى يعزم عليه إلا رفع إليه حوائجه **فكتب إليه** : "قد رفعت حوائجي إلى مولاي ، فما أعطاني منها قبلت ، وما أمسك منها عني قنعت .[2]

---

[1] **أخرجه الطبراني** في الكبير والرواية الثانية له (٦١٨٢، وأبو نعيم في الحلية (١ / ١٩٧)، وصححه ابن حبان (٧٠٦).

[2] أنظر : الإحياء (٣ / ٢٣٩)، والقناعة لابن السني (٤٣) عن نضرة النعيم (٣١٧٣).

الباب السادس

في الغضب ودفع الكبر

ولا ينبغي للغضبان على الشخص أن يعاقبه في حال غضبه ، وإن كان مستحقاً ؛ بل يمهل حتى يسكن الغضب ، لتكون العقوبة بمقدار الإساءة ، لا بمقدار الغضب .

أتى عمر بن عبد العزيز برجل كان واجداً عليه ، **فقال** : لولا أني غضبان لضربتك ثم خلى سبيله .

والكبر تعظيم شأن النفس واحتقار الغير ، وذلك يكون بسبب الترفع على ما هو دونه إما في النسب أو المال أو العلم أو العبادة أو غير ذلك .

وعلامة الكبر الأنفة ممن يتكبر عليه ، والاختيال والفخر ومحبة تعظيم الناس له **وعلاج ذلك نوعان** : جملي ، وتفصيلي ؛ **فأما الجملي** : فنوعان ، علمي ، وعملي .

فالعلمي : في الأدلة السمعية والعقلية على رذائل الكبر .

وأما العملي : فصحبة المتواضعين وسماع أخبارهم .

وأما التفصيلي : فإن ينظر إلى رذائل النفس ، وأن يعلم أن ما يتكبر به إن كان مالاً فهو مأخوذ منه عن قريب ، والفضل إنما يكون في الغنى عن الشئ لا به ، لأن الغنى في الشئ فقير إليه .

وإن كان علماً فقد سبقه خلق كثير أعلم منه ، ثم علمه ينهاه في حالته ، فهو حجة عليه ، كذلك إن كان عملاً تم رؤيته للعمل بعين التمام نقيصه .

وعن أبي سلمة ، قال : التقى عبد الله بن عمرو وابن عمر على المروة ، فنزلا فتحدثا ، ثم نزل عبد الله بن عمرو ، وقعد ابن عمر يبكي ،

فقيل له : ما يبكيك ؟ **فقال** : هذا **. يعني عبد الله بن عمرو** زعم أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : ((**من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر كبَّه الله تعالى في النار على**

وجهه)) . [1] **ويسنده إلى إياس بن سلمة ، عن أبيه ، قال :** قال رسول الله ﷺ :

((لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب من الجبارين حتى يصيبه ما أصابهم)) . [2]

وفي أفراد مسلم من حديث ابن مسعود ، عن النبي ﷺ إنه قال :

((لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر ، فقال الرجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة ، قال : إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر

---

[1] أخرجه البيهقي (١٠ / ١٩١) وذكره الهيثمي في " مجمع الزوائد " (١ / ٩٨) وعزاه إلى الطبراني في " الكبير " و " أحمد " وقال الهيثمي : " رجاله رجال الصحيح " .

[2] أخرجه الترمذي (ح / ٣٠٠٠) والبغوي (١٣ / ١٦٧) وضعيف الجامع (ح / ٦٣٤٤) .

الحق وغمط الناس)) .[1] وفي إفراده من حديث الأغر عن أبي هريرة وأبي سعيد ، قالا : قال رسول الله ﷺ : **((يقول الله عز وجل : العز إزاري ، والكبرياء ردائي ، فمن نازعني فيهما عذبته)) .[2]**

قال الخطابي : ومعنى هذا الكلام أن الكبرياء والعظمة صفتان لله اختص بهما لا يشركه فيهما أحد ولا ينبغي لمخلوق أن يتعاطهما ، لأن صفة المخلوق التواضع والتذلل ، وضرب الرداء والإزار مثلاً يقول والله أعلم ، كما لا يشرك الإنسان في إزاره وردائه فكذلك لا يشركني في الكبرياء

---

[1] أخرجه مسلم في (الإيمان ، ح / ١٤٧ ، ١٤٩) وأبو داود (ح / ٤٠٩١) والترمذي (ح / ١٩٩٨ ، ١٩٩٩) وابن ماجة (ح / ٥٩ ، ٤١٧٣) والمشكاة (٥١٠٨) .

[2] أخرجه مسلم في (البر ، ح / ١٣٦) بلفظ : ((العز إزاره ، والكبرياء رداؤه فمن ينازعني عذبته)) .

والعظمة مخلوق . **قال : وقوله** : لا يدخله الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر يتأول على **وجهين : أحدهما** : أنه كبر الكفر .

والثاني : أنه ينزع الكبر من قلوب أهله قبل دخولهم الجنة ، **وقوله** : وغمط الناس أنه أزرى بهم واستخف بهم ، **ويقال** : غمط ، وعمص .

ويسنده إلى الحسن ، قال : تراهم يهدون عند هدير الفحل ، أنت والله وتراه مقنعاً ساكتاً يحسب حميق أنه مثل ما يقال له ، **قال** : وترى أحدهم يتخزل في مشيته يسحب عظامه عظماً لا يمشي طبيعة .

***